المفاخرات والمناظرات

١- مقامة في المفاخرة بين الماء والهواء للشيخ أحمد البربير

٢- المفاخرة بين الشمس والقمر للشيخ بهاء الدين البيطار

٣- غريب الأنباء في مناظرة الأرض والسماء للشيخ محمد المبارك

٤- نضرة البهار في محاورة الليل والنهار للشيخ محمد المبارك

٥- أبهى مقامة في المفاخرة بين الغربة والإقامة للشيخ محمد المبارك

٦- مناظرة بين العلم والجهل للشيخ محمد الدسي

عُنِيَ بِهَا

الدكتور محمد حسان الطيان

جامعة الكويت - كلية الآداب

جَمِيعُ الحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

دار البشائر الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع هاتف: ٧٠٢٨٥٧ - فاكس: ٩٦١١/٧٠٤٩٦٣..
e-mail:
بيروت - لبنان ص.ب: ١٤/٥٩٥٥ bashaer@cyberia.net.lb

٢٧ ٢٣٩

المفاخرات والمناظرات

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد للّٰه رب العالمين، والصلاة والسلام على سيِّد البلغاء والفصحاء المبينين، محمَّد ﷺ وآله وصحبه الغُرِّ الميامين.

اللَّهُمَّ إنِّي أعوذ بك من فتنة القول كما أعوذ بك من فتنة العمل، وأعوذ بك من التكلُّف لما لا أُحسن كما أعوذ بك من العُجب بما أحسن، وأعوذ بك من السَّلاطة والهَذَر كما أعوذ بك من العِيِّ والحَصَر، وأسألك السداد والإخلاص وتمام النعم.

وبعد، فقد عرف أدبنا العربي من أفانين القول في الشعر والنثر والخطابة والترسُّل.. والحكمة والمثل... ما اتَّشح به تاريخه الطويل بيانًا وبهاءً.. وبلاغة وفصاحة.. وجمالاً وإمتاعًا.. وكان لتنوُّع هذه الفنون أثر كبير فيما وصل إليه هذا الأدب من رفعة ومكانة لا تكاد تدانيها مكانة.

على أنَّ أكبر الأثر في هذه المنزلة والمكانة إنما يعود إلى ذلك النوع الذي شرَّف الله به العربية وآدابها فسمت على آداب الدنيا قاطبة وهو القرآن الكريم، كلام الله المبين، وحبل الله المتين، وآيته المعجزة، لا تنقضي عجائبه، ولا يَخْلَق عن رد.

يزيد على طول التأمُّل بهجةً ... كأنَّ العيون الناظرات صياقل

* * *

والرسائل التي نقدِّم لها هنا تنتمي إلى فنٍّ جَمَع هذه الفنون كلَّها، وهو فن المقامة، ولعله من أطرف فنون الأدب وأغناها، إذ يتنقل فيه قارئه بين ألوان الأدب حتى لا يكاد يُخلِف واحدةً منها، فما شئت من نثر وشعر.. وقرآن وحديث.. ومثل وحكمة.. يجمع ذلك كله ويؤلف بينه كلام مسجوع تنوَّق فيه أصحابه حتى بلغ الغاية أو كاد، وإن لم يخل من تكلُّفٍ وتمحُّل أحيانًا؛ وعذرهم في ذلك أنَّ المقامة لا تقوم إلاَّ على هذا، فهي ــ كما يعرِّفها الدَّارسون ــ : «نص أدبي مسجوع مرصَّع بالمحسِّنات البديعية وغير مقيَّد بطول معيَّن، يتعاطاه الكاتب لإظهار براعته وتفوُّقه أو لإبداء رأيه في قضية ما، أو لاتِّخاذه ستارًا للتعبير عن نزعاته الظاهرة أو المكبوتة أو للدلالة على مكانته»[1].

أما مضمون هذه الرسائل فينتظمه خيط واحد يجمع بينها وهو المفاخرات، ثم هي تتنوَّع بتنوُّع المقامات، ففي المقامة الأولى مفاخرة بين الماء والهواء، وفي الثانية مفاخرة بين الشَّمس والقمر، وفي الثالثة مفاخرة بين الأرض والسَّماء، وفي الرابعة مفاخرة بين اللَّيل والنَّهار، وفي الخامسة مفاخرة بين الغربة والإقامة، وفي المقامة السادسة ــ وهي الأخيرة ــ مفاخرة بين العلم والجهل.

وبرغم اختلاف مؤلِّفي هذه المقامات ــ وقد ترجمنا لكلٍّ منهم قبل نص مقامته ــ فكأنَّما ينزعون عن قوس واحدة شكلاً ومضمونًا.. مبنًى ومعنًى ــ وإن اختلف قُطبا المناظرة بين كلٍّ منها ــ حتى لكأنَّ

(١) عن كتاب «الإمام الحافظ جلال الدِّين السّيوطي معلمة العلوم الإسلامية» للأستاذ إياد خالد الطباع، ص ٢٤٧.

مؤلِّفها واحد، ممَّا يؤذن بأن أصحابها يحاكون فيها مثالاً سابقًا يتقيَّلون آثاره.

* * *

هذا وقد سبق لكلٍّ من هذه المقامات أن طبع طبعة حجرية قديمة تعود إلى بدايات القرن السابق (الرابع عشر الهجري = العشرين الميلادي)[1]، فأحبَّت دار البشائر الإسلامية أن تسهم في نشر هذا اللون من الأدب بما عهد القرَّاء في نشراتها من جمال الإخراج وأناقة الطباعة وتخيّر الموضوع ودقَّة التصحيح.. إلى غير ذلك من بصماتها المتميّزة التي لا يخطئها أيّ عاشق للكتب أو محبٍّ للتراث في عصرنا، فأنت مع مطبوعاتها في نعيم لا يبيد.

وإن كان من فضل في المبادرة إلى إخراج هذه الرسائل بهذا اللبوس الزاهي فهو مصروف إلى أخوين فاضلين جمعا من كريم الشمائل ما يندر وجوده في هذا الزمان.

أولهما الأستاذ المحقق الشيخ محمد بن ناصر العجمي، الذي حوَّل غربتي إقامة، وليلي نهارًا، وأرضي سماءً.. كيف لا؟! وقد أحاطني بجميل عطفه وجليل مكرماته، فالله وحده من يتولَّى جزاءه.

إذا نحنُ أثنينا عليكَ بصالحٍ فأنتَ كما نُثني وفوقَ الذي نُثني

وهو صاحب الفضل في تخيُّر هذه الرسائل وجمعها والتأليف فيما بينها والترجمة لأصحابها ومتابعة إخراجها.

---

(١) أشرنا في مستهلّ كل مقامة إلى تاريخ نشرتها السابقة.

وثانيهما الأستاذ الناشر رمزي دمشقية، الذي أحسن الظنّ بـي، فرغب إليَّ أن أقرأ هذه الرسائل بغية ضبطها، وتفصيلها، وترقيمها، وتمييز شواهدها، ووزن أشعارها، وشرح غريبها... فجزاهما الله عنِّي خير ما جزى صاحبًا عن صاحبه وخليلاً عن خليله.

وأسأله سبحانه أن يتقبَّل هذا العمل وينفع به، إنَّه خير مسؤول وبه المستعان وعليه التُّكلان.

والحمد للَّه الذي بنعمته تتم الصالحات.

الدكتور محمد حسان الطيان

دمشق ــ ضاحية دمَّر

الخميس ١٧ جمادى الأولى ١٤٢١هـ

١٧ آب ٢٠٠٠م

المفاخرات والمناظرات

(١)

مقامة في المفاخرة بين الماء والهواء

تأليف

الشيخ أحمد بن عبد اللطيف البربير الحسني البيروتي

(١١٦٠ - ١٢٢٦ هـ)

عُني بها

الدكتور محمد حسان الطيان

جامعة الكويت - كلية الآداب

دار البشائر الإسلامية

ترجمة المؤلف[1]

هو العلاَّمة الأديب، والشاعر النَّاثر؛ أديب الفقهاء، وفقيه الأُدباء؛ الشيخ شهاب الدِّين أبو العبّاس أحمد بن عبد اللطيف بن أحمد بن محمد البربير الحسني البيروتي الأصل، الدمياطي المولد، الدِّمشقيّ وفاة.

وُلِد بدمياط سنة ١١٦٠هـ لأبٍ تاجر، ولمّا نشأ أخذ بطلب العلم، فحفظ القرآن الكريم صغيرًا، ثمَّ لمّا بلغ اثنتي عشرة سنة حفظ ألفية ابن مالك، وحضر شرحها لابن عقيل على الشيخ عبد الحيّ فتح الله. وعند الثالثة عشرة تعلق بنظم الشعر؛ فصار يشبب ويتغزَّل؛ فاعترض عليه في دعوى الصبابة بعض الأُدباء، فأنشد:

لقد أنكرَ اللاحي شجوني وصبوتي
لكوني صغيرًا قلتُ لا تُنكروا الفضلا

---

(١) مصادر ترجمته: «حلية البشر» لعبد الرزاق البيطار (١/ ٢١٧)؛ و «أعيان دمشق» لجميل الشطي (ص ٣٣)؛ و «منتخبات التواريخ لدمشق» للحصني (٢/ ٦٤١، ٦٧٥، ٨٥٧)؛ و «الأعلام» للزركلي (١/ ١٤٨)؛ و «أعيان القرن الثالث عشر» لخليل مردم بك (ص ١٤٥)؛ و «معالم وأعلام» لأحمد قدامة (١/ ١١٧).

رآنـــي الهـــوى طفـــلاً فمـــازحَ مهجتـــي
ومِـــن عـــادةِ المَـــزَّاح أن يـــألـــفَ الطفـــلا

ثـم حضـر قـراءة المنهـج وتفسيـر البيضـاوي علـى الشيـخ محمـد الدنهيجي، وجمع الجوامع على الشيخ عبد السلام أبـي النصر، وتجريد الخطيب وابن قاسم مرارًا على الشيخ عبد الحي، وقرأ عليه أيضًا مختصر السعد والسُّلَّم للأخضري وغيره، وحضر على الشيخ مصطفى المحلي ــ الشهيـر بـالسَّقَّـا ــ شـرح الهـدهـدي وشـرح اللقـانـي علـى الجـوهـرة والاستعارات لعصام، وحضر على الشيخ أحمد البستاني في العروض والفرائض والأشموني على الألفية.

وفي سنة ١١٨٣هـ هاجر إلى بيروت، فتضايق أول أمره حين نزل بها، وأنشد:

لقـــد غـــرَّنـــي إبليـــسُ قـــومـــي بقـــولِـــهِ
تغـرَّبْ عـن الأوطـانِ فـي طلـبِ المجـدِ
كمـــا غـــرَّ إبليـــسُ الشيـــاطيـــنِ آدمًـــا
وأخـــرجَـــهُ بـــالمكـــرِ مـــن جنَّـــة الخلـــدِ

ثمَّ رحل إلى دمشق، فوافق مجيئه قدوم محمد أبـي الذهب، فلم يجتمع بأحد من فضلائها سوى الشيخ مصطفى الرحمتي، فلما لقيه أنشده:

أيُّهـــا الســـاكنـــون روضَ دمشـــقٍ حـزْتُـمُ فـي الأنـامِ عيشًـا رفيهـا
قـد سكنتُـم قصـورَ جنّـاتِ عـدنٍ وظفـرتُـم بـرحمـةِ اللَّـهِ فيهـا

وقد طلب منه الأمير يوسف الشهابي أن يتولى الفتوى والقضاء في بيروت، فامتنع الشيخ البربير عن ذلك حتى أقنعه الأمير بالموافقة، غير أنَّ

الشيخ وضع شروطًا لقبوله، فإذا أخلَّ الأمير بإحداها اعتزل المنصبين، وكانت الشروط هي:

* أن لا يتصدَّى الأمير للدعوى بعد أن يكون هو فصلها بمجلس قضائه، وأن يأمر بتنفيذها دون إبطاء.

* إذا كانت الخصومة بين الأمير وبين أحد المواطنين العاديِّين، وكان الحُكْم ضد الأمير، فإنَّ على الأمير أن ينفِّذ ما أمر به الشرع الحنيف.

* أن يبعث الأمير من قِبله أحد أتباعه ويجلس في المحكمة لتحصيل ما على الدعوى من الرسوم المقرَّرة بين القضاة.

* أن لا يلتزم الشيخ البربير بارتداء الزيّ المقرَّر للقضاة من لبس العمامة والفَرَجيَّة.

وبقي الشيخ في القضاء يتمنَّى أن يخلّ الأمير بشرط حتى يتخلَّص، فما وقع ما أراد، فصار يتمنَّى أنه لم يكن خُلِق أو يتمنَّى زوال عقله لينجو. وعندما ولي القضاء أنشد:

قد عدلْنا وما عدلْنا بغَيٍّ ... وحكمْنا بأمرِ ربِّ السماءِ
فأبى النّاس حكمَنا ولَعمري ... قلَّ مَن يرتضي بحكمِ القضاءِ

وقوله:

رماني زماني بما يجهدُ ... فمَن ذا أرومُ ومَن أقصدُ
وأوقفني في القضاءِ القضا ... وما كنتُ أحسبه يوجدُ
وظيفةُ كرْبٍ، لأثقالها ... ترانـي لموتي الرَّدَى أحمدُ
وحسبي انقلاب صديقي بها ... عدوّاً، إذا فاته المقصدُ

فبـــاطنهـــا الـــذُلّ والابتـــلا وظـــاهـــرهـــا العـــزّ والســـؤددُ
وإذ ليـــس دأبـــي ولا ديـــدنـــي ولا أرتضيـــــه، ولا أعمـــــدُ
وصعـــبٌ علـــى المـــرء تكليفُـــهُ أمـــورًا خـــلاف الـــذي يَعْهَـــدُ

وقيل: إنَّ الأمير يوسف الشهابي حين اطَّلع على هذه الأبيات دخلت قلبه خشية الله، فبادر إلى إعفاء الشيخ من القضاء وعيَّن له مرتَّبًا يكفيه، فامتدحه الشيخ البربير بقوله:

أميـــرُنـــا أكـــرم مـــن حـــاتـــمٍ لـــه بَنـــانٌ ضـــاق عنهـــا الفضـــا
بحلمـــه أدركـــت مـــا أشتهـــي وقـــد كفـــانـــي الله شـــرَّ القضـــا

وقال أيضًا:

أميـــرٌ عظيـــمٌ لـــهُ رتبـــةٌ علـــى غيـــرِه صعبـــةُ المُـــرتَقَـــى
قصـــرتُ ثنـــائـــي علـــى وصفِـــهِ وأعطيتُـــهُ فـــي الـــورى مَـــوْثِقـــا
ولا غـــروَ فـــي كـــونِـــهِ وارثًـــا ثنـــائـــيَ دونَ الـــورى مطلقـــا
فقـــد أعتـــقَ القلـــبَ مـــن كـــربِـــهِ وصـــحَّ الـــولاءُ لمَـــنْ أعتقَـــا

وبعد ذلك أنشأ مكتبًا (كُتَّابًا) لتعليم الأطفال قانعًا بما يناله منه من الرِّزق الكفاف، إلاَّ أنه لم يسدّ حاجته، وافتقر.

وفي سنة ١١٩٥هـ عزم على الرحيل إلى دمشق ورغب في سكناها، ورأى أنها خير البلاد. فلما قصدها نزل بالشيخ خليل المرادي ــ مفتي دمشق ــ فلمَّا دخل عليه مدحه بقصيدة طرب لها ورفع شأنه عنده.

سكن الصَّالحية واستقرَّ بها وأُعجب بها غاية الإعجاب، وذكرها بشعره مادحًا يقول:

قـد ظفـرنـا بعيشـةٍ مـرضيـة ... مـذ حللْنـا فـي جنَّـةِ الصـالحيّـةْ
ورأينـا الـزهـورَ تبسـم لطفًـا ... عـن ثنـايـا مـن النـدى لـؤلـؤيّـةْ
وجـواري السحـاب جلَّلَـتِ الأر ... ضَ ببسـطٍ مـن غـزلهـا سنـدسيّـةْ
رقـص المـاءُ مـن غنـا الطيـر حتـى ... نقَّطَتْـه أوراقُهـا الـذهبيّـةْ
وجـهُ روضٍ يـريـك نجـلَ عيـونٍ ... وخـدودًا مـن زهـرِهِ عنـدميّـةْ
وقـدودًا مـن الغصـونِ نشـاوى ... مـن طـلا الطـلِّ بُكـرةً وعشيّـةْ
حبَّـذا حبَّـذا معـانـي مغـانٍ ... كبـروجٍ حَـوت نجـومًـا مُضِيَّـةْ

ويقول أيضًا:

فـي الصَّـالحيـةِ ذو أيـادٍ عنـدهـم ... مَلقى الضيوف كفرضِ عينٍ لازمِ
قـومٌ قـد استغنَـوا بعبـدِ غنيِّهـم ... وتعلَّمـوا مـن جُـود ذاك الحـاتمـي

* * *

وقال الشيخ عبد الرزاق البيطار في «تاريخه»: كان والده يتعاطى التجارة. ولما بلغ رُشْده حفظ القرآن العظيم وجملة من أحاديث النبي الكريم، ونظم الشعر وهو ابن ثلاثة عشر عامًا. وحضر إلى بيروت وطنه الأصلي في سنة ١١٨٣هـ، ثمَّ توجَّه إلى دمشق، ثم عاد إلى بيروت فأكرهه الأمير يوسف الشهابي على تولِّي القضاء بها، فقام بأعبائه ثم استعفى منه لورعه، ثم عاد إلى دمشق سنة ١١٩٥هـ، وسكن بالصالحية. وأخذ عن العلاَّمة الشيخ مصطفى الصلاحي، وشرح له شيخه المرقوم بديعته المشهورة[1].

* * *

(١) «حلية البشر» للبيطار (١/ ٢١٧).

وقال الشيخ القاياتي: «عالم فاضل نحرير من كبار العلماء المشاهير. له مؤلَّفات جليلة ومصنَّفات جميلة، في العلوم العربية والفنون الأدبية. اطَّلعتُ له على شرح بديع يشهد له بحسن الصنيع، يسمَّى بـ: «الفتح الجليّ على بيتي الموصلي»، وقد طُبِع هذا الكتاب بالمكتبة الأدبية في بيروت، واشتغل الفقير بخدمة تصحيحه مع حضرة الشَّاب إبراهيم الأحدب. وهو كتاب لغة وأدب كله عجب، وقد أُهديت إلينا منه نسخة بعد الطبع ظريفة الشكل والوضع.

وله: «الفصيحة العجما في قوله ﷺ: «أحبب حبيبك هونًا ما» ». و «محاكمة بين الماء والهوى»[1]، وغير تلك الأشياء من الكتابة الفائقة والأشعار الرقيقة الرائقة، مع لطافة النكتة وظرافة الذائقة.

ومما حكاه لي قريبه أبو إبراهيم البربير أنه كان ذات يوم عند أحد أعيان شرفاء مكة المكرمة، وكان في إصبعه[2] خاتم وله فصّ من الأحجار الثمينة، فانكسر الحجر وسقط من يده، فتشاءم الشريف من ذلك، فأنشد الشيخ على البديه من كلامه وبديع نظامه:

لا تخشَ يا ابنَ رسولِ اللَّـهِ من حجرٍ
رأى المكارمَ في كفَّيكَ فانفجرا
فإنَّ سعدَكَ سعدٌ لا نظيرَ له
فاقَ السعودَ وأضحى يفلق الحَجَرا»[3]

* * *

(١) وهي هذه التي بين يديك.

(٢) أي الشريف.

(٣) «نفحة البشام في رحلة الشَّام» للقاياتي (ص ١٦).

ووصفه كمال الدِّين الغزِّي بـ: الشيخ العالم الفاضل الأديب الشاعر المُجيد المُفْلق الناظم الناثر المفتنّ الأوحد.

وقال: وُلِد في عاشر محرم ١١٦٠ بدمياط، وبها نشأ، وقرأ القرآن على الشيخ قاسم بن داود تجويدًا وحفظًا، وأخذ الفقه والعربية عن جماعة كالشمس محمد الدنهيجي، والشهاب أحمد البستاني، والعزّ بن عبد السلام بن نصر، والشيخ عبد الحيّ بن فتح الله البيروتي، وأخذ عن السيِّد محمد مرتضى الزبيدي، والشيخ صالح المغربي الفلاني، والسيِّد عبد الرحمن العيدروسي، وغيرهم. ورحل إلى بيروت وتوطَّنها سنة ١١٨٠هـ وحج سنة ١٢٠٣هـ، وقدم دمشق قبلها وبعدها[1].

* * *

وقال خليل مردم بك[2]: ومن مؤلفاته: مقاماته التي أولها: «حكى بليغ هذا الزمان والعصر، من حديث ألذّ من سُلافة العصر». وله بديعيَّة علَّق عليها شروحًا: مصطفى بن عبد الوهاب بن سعيد الصلاحي، وله كتاب: «الشرح الجليّ على بيتي الموصليّ»، وهو تأليف واسع أودعه صاحبه فنونًا من الآداب وفصولاً في كل علم من العلوم، والموصلي المذكور هو عبد الرحمن بن إبراهيم الموصلي. أما البيتان اللذان شرح البربير رمزهما، فهذان:

إنْ مرَّ والمرآةُ يومًا في يدي ... مِنْ خَلفِهِ ذو اللطف أسمى من سما

دارت تماثيلُ الزجاج ولم تزلْ ... تقفوه عدْوًا حيثُ سارَ ويمَّما

---

(١) «موسوعة علماء المسلمين» (١/ ٣/ ٣٠٩).

(٢) «أعيان القرن الثالث عشر» له (ص ١٤٥، ١٤٦).

ومن شعر البربير، قوله في التوحيد:

لـقـد آمـنـتُ بـالله وأصـبـحـتُ بـه آمِـنْ
هـو الأولُ والآخِـر والـظـاهـرُ والـبـاطِـنْ

وقوله في كبح الشهوات:

إنَّ الـذيـنَ يجـاهـدون النفـسَ شبّـانًـا وشيبـا
مَـنَّ الإلـه بـنـصـرِهـمْ وأثـابـهـم فـتـحًـا قـريـبـا

* * *

وذكره تلميذه مفتي بيروت العلاَّمة عبد اللطيف فتح الله في ديوانه، حيث قال مادحًا جنابَ قُرَّة عين الأُدباء الكرام، وواسطةِ عقد الجهابذَةِ الفخام، حضرةَ شيخِه السيد أحمد البربير، وكان إذ ذاك حضرَ من دمشقَ الشام سنة ١١٩٨هـ[1]:

شَمْسُ الكَمَالِ كَسَا بَيْرُوتَنَا حُلَلاً مِنْ نُورِ طَلْعَتِهِ لَمَّا حَلاَ وَحُلاَ
غَزَالُ سِرْبٍ غَزَا الأَلْبَابَ نَاظِرُهُ وَثَوْبُ سُقْمٍ لِجِسْمِي بِالْهَوَى غَزَلاَ
بَدْرُ الجَمَالِ جَمَالُ الْبَدْرِ حَلَّ بِهَا قَدْ حَلَّ بُرْجَ الْعُلَى وَالْعِزّ مُكْتَمِلاَ
الْجَوْهَرُ الْفَرْدُ عَقْدُ الْمَجْدِ مَنْ نُظِمَتْ
بِهِ الْفَضَائِلُ حَتَّى زَيَّنَ الْفُضَلاَ
وَمَنْ سَمَا فِي سَمَاءِ العِزِّ مُرْتَفِعًا فَوْقَ السِّمَاكِ عَلَى أَوْجِ السُّهَى وَعَلاَ
الأَلْمَعِيْ حَسَنُ الأَفْعَالِ ذُو حَسَبٍ عَلِيٌّ قَدْر عَلَى أَمْثَالِهِ كَمَلاَ
أَعْنِي بِذَا أَحْمَدَ الْبَرْبِيرَ مَنْ جُمِعَتْ فِيهِ مَزَايَا بِهَا قَد نَبْلُغُ الأَمَلاَ

(١) «الديوان» (١/ ٤٩، ٥٠)، وقد ذكره مادحًا له في مواضع منه (١/ ٥٢، ٥٥، ٦٠ ـ ٦٢، ٦٦، ٧٠، ٧٧، ٧٨).

نَسْلُ الأَكَارِمِ بَحْرٌ مِنْ مَكَارِمِهِ إِكْرَامُ وَافِدِهِ إِنْ نَحْوَهُ وَصَلاَ
كُلُّ الْمَحَاسِنِ نُورٌ مِنْ مَحَاسِنِهِ
لَمَّا عَلَى الْحُسْنِ مِنْ دُونِ الوَرَى ٱسْتَمَلاَ
لَهُ حَدِيثٌ غَرِيبُ النَّظْمِ سَلْسَلَهُ
بِكُلِّ مَعْنًى لَطِيفٍ حَيَّرَ العقلاَ
هَذَا هُوَ الْكَوْكَبُ الزُّهْرِيْ الَّذِي مُحِيَتْ
عَنَّا الغُمُومُ بِهِ لَمَّا الْهُمُومَ جَلاَ

شَبَّهْتُهُ الْبَدْرَ لَكِنْ لَيْسَ يُشْبِهُهُ فَذَا يَغِيبُ وَهَذَا قَطُّ مَا أَفَلاَ
هَذَا الَّذِي قَدْ حَوَى حِلْمًا بِلاَ شَبَهٍ لِأَنَّهُ مِنْ كَمَالِ الحِلْمِ قَدْ جُبِلاَ
هَذَا الَّذِي هَامَ قَلْبِي عِنْدَ رُؤْيَتِهِ شَجًا، فَيَا وَيْلَ مَنْ فِيهِ لَنَا عَذَلاَ
تَبَسَّمَ الدَّهْرُ مِنْ فِيهِ بِهِ فَرِحًا يُشِيرُ لِي أَنَّهُ قطبُ الزَّمَانِ بِلاَ
يَمِّمْ حِمَاهُ لِتَجْنِي مِنْ بَدَائِعِهِ دُرَّ العُقُودِ إِلَى أَنْ تَبْلُغَ الأَجَلاَ
وَٱقْصِدْهُ تهْدِكَ نِيرَانُ القِرَى سُبُلاً لِرَبْعِهِ المُعْتَلَى مِنْ غَيْرِ أَنْ تَسَلاَ
وَلاَ تَكُنْ غَافِلاً عَنْ فَيْضِ رَاحَتِهِ فَلَيْسَ ينْكر ذَا، إِلاَّ الَّذِي جَهِلاَ
لاَ زَالَ طَالِعُهُ بِالسَّعْدِ مُقْتَرِنًا يَزِيدُهُ رِفْعَةً، لاَ تَنْتَهِي، وَعُلاَ
مَا هَزَّ غُصْنَ الرُّبَى رِيحٌ وَمَا نَشَدَتْ شَمْسُ الكَمَالِ كَسَا بَيْرُوتَنَا حُلَلاَ

زواجه ومؤلفاته:

تزوَّج الشيخ من آل الشمعة بدمشق بعد استقراره بها، ولكنه لم يُرزَق بولد.

ترك جملة من مؤلفات ضاع معظمها، وبقي منها:

- شرح بيتي الموصلي (طبعة المطبعة الأدبية ببيروت).

ـ كتاب في اقتباس القرآن.

ـ الفصيحة العجما في الكلام على حديث «أحبب حبيبك هونًا ما»[1].

ـ رسالة في المفاخرة بين الماء والهواء (وهي التي بين يديك).

ـ تشطير البردة.

ـ قصيدة بديعية.

ـ جملة رسائل ومقامات.

ـ رسالة زهر الغيضة في ذكر الفيضة.

ـ ديوان شعر.

وفاته ورثاء تلميذه له:

تُوُفِّي الشيخ البربير رحمه الله تعالى في السابع عشر من ذي الحجة ختام سنة ١٢٢٦[2]هـ، وقد رثاه تلميذه، مفتي بيروت، الشيخ عبد اللطيف فتح الله، بقوله[3]:

ما للحمائم لا تكادُ تطيرُ؟ ... ما للأراضي بالأنامِ تَمورُ؟

ما للجبالِ الشامخاتِ تَدَكْدَكَتْ، ... وأبو قُبَيسٍ قد هوَى وثبيرُ

ما للنفوسِ تكادُ تُزهَقُ لَوعةً، ... ولها شهيقٌ قد علا وزفيرُ

ما للعيونِ دموعُها مصبوبةٌ ... مثلُ الدماءِ على الخدودِ تسيرُ

فكأنها، حُمرًا وسُودًا، أحرفٌ ... لكنها فوقَ الخدود سطورُ

---

(١) طُبعت هذه الرسالة في دار البشائر الإسلامية ضمن مجموع رسائل «لقاء العشر الأواخر بالمسجد الحرام» رقم (١٠)، بتحقيق الأخ الشيخ رمزي دمشقية.

(٢) «ديوان عبد اللطيف فتح الله» (١/ ٣٧٤).

(٣) «الديوان» (١/ ٣٧٥، ٣٧٦).